

كتابات الإنكليز عن الزوايا في الجزائر دراسة في المنهج والاستنتاج

بقلم /أ. د. محمد ثناء الله الندوي

قسم اللغوالعربية وآدابها

جامعة كره الإسلامية. الهند

مقدمة

الاستشراق ظاهرة أكاديمية متعمقة الجذور في تاريخ المسيحية والإسلام في السياق الاستعماري الجغرافي (آسيا. إفريقيا. أوربا) المتوأم بالمعتقد الديني. إنها ظاهرة قوية تستمد قوتها من رصيدها المنهجي المتأزر مع تطلعات السلطة الدينية المسيحية واليهودية في جهة والمؤسسات السياسية الاستعمارية في أخرى طيلة قرون عدة. التأزر هذا مفرز للمشاهدة لكل من يبحث في تاريخ الاستشراق البدائي والأوسط والحديث والمعاصر زمنيا وفي لغات أوربية قديمة وحديثة (اللاتينية. الألمانية. الإيطالية. الفرنسية. الإنكليزية. الإسبانية. وسواها) وفي سياق مؤسسات الاستشراق البابوية والجامعية والحكومية. إذ من المبرهن عليه ارتباط رغبة المستشرقين في الاطلاع على الإسلام ومؤسساته وشعوبه ولغاتهم

وآدابهم وحضاراتهم وعالمهم الجغرافي بالمخطط البابوي والاستعماري قبل الحروب الصليبية. هؤلاء جابوا أقطار العالم العربي (على الخيل والبغال والحمير والدواب. قبل اكتشاف وسائل النقل الحديثة والسريعة) وعرفوا لغات الشعوب الإسلامية واطلعوا على علومهم وآدابهم وثقافتهم. خدمة للمؤسسات الكنسية والاستعمار السياسي. وفي جهة أخرى قاموا بإحياء التراث العربي والإسلامي من خلال تحقيق مئات من المخطوطات وطباعتها ونشرها. إضافة تأليف مئات من الكتب والمعاجم والمفهرسات في آداب الشعوب الإسلامية ولغاتهم وتراثهم الثقافي والديني. وتأسيس كراسي للدراسات الاستشرافية في جامعات أوربا وأمريكا يؤمها أقطاب العلم من العالم (العربي والإسلامي وسواهما). بذلك تحول الاستشراق

إلى ظاهرة أكاديمية - في كافة العلوم والآداب - لا يستهان بقيمتها وقوتها على الصعيد العلمي عالميا.

كثرت اهتمامات المستشرقين الإنكليز بموضوع التصوف ومؤسساته في العالم العربي والإسلامي: هيكله التاريخي وبنيته المفاهيمية ومشاريعه المعرفية والتربوية والأخلاقية وظواهره الاجتماعية. ولا ينكر ما لهم من فضل في إثراء مكتبة التصوف بكتاباتهم التي أصبحت جزءا هاما من مراجع الأبحاث الأكاديمية الجامعية على الصعيد العالمي. ناهيك أعمال المستشرقين الإنكليز من أمثال أرنولد (1864 - 1930) ونكلسون (1868 - 1945) وترمنجهام (1909 - 1987) ومارتن لينج (1909 - 2005) وسواهم التي تعتبر من أهم مصادر البحث العلمي الصوفي دُوليًا. على أن ذلك لا ينفي ولن ينفي ضرورة تقييم موضوعي صارم لخطة دراساتهم ومعطياتها الإيجابية والسلبية.

التصوف والزوايا الصوفية في الجزائر

التصوف والزوايا الصوفية من المؤسسات الروحية الدينية والاجتماعية

في جميع أقطار العالم الإسلامي حيث لا تخلو منطقة يقطنها المسلمون في دول المسلمين من التصوف والزوايا الصوفية. بل يتعدى الأمر إلى جميع دول العالم وحتى الدول الأوروبية والأمريكية التي توجد بها الجاليات الإسلامية. أما مناطق المغرب العربي وبخاصة الجزائر فوجدت فيها الزوايا الصوفية منذ نقطة متقدمة في التاريخ. والظاهرة مرتبطة بدخول الإسلام فيها، وتطورت بحكم تطور الفكر الديني والتربية الروحية والجهاد ومكافحة الغزو الفكري والثقافي والسياسي الأجنبي في تاريخ الإسلام قديما وحديثا منذ عصر الفاطميين (296 - 567هـ) وعصر الموحدين (515 - 668هـ) إلى العصر العثماني (1516 - 1830) م والعصر الحديث. وجدت الزوايا تربة خصبة في الجزائر حيث تجاوزت نفوس المواطنين بها لتتخطى في منظومتها التربوية الروحية التي جمعت بين العبادة والتعليم والتوجيه والإصلاح والجهاد في وقت واحد. لقد تعددت الطرق الصوفية التي واصلت مهمتها الدعوية والتربوية في الجزائر ، ولا يطمع هذا البحث أن يسهب في هذا المجال الذي يشكل بنفسه موضوع تأليف مستقل. وإنما يكتفي

إن هذه الطرق وسواها من فروعها أنشأت مئات من الزوايا الصوفية في الجزائر. ومن أقدمها: رباط بونه: وهو المعروف برباط مروان البوني. أسسه الفقيه أبو عبد الملك الأندلسي (ت قبل 440هـ / 1048م). وزاوية عبد السلام التونسي (ت 589هـ / 1193م) في تلمسان. وزاوية الفقيه الولي الصالح أبي زكريا الزواوي (ت 611هـ). خارج مدينة بجاية وزاوية ابن يبيكي البجائي. وزاوية ملارة بقسنطينة أسسها الشيخ يعقوب بن عمران البويوسف (630 / 717هـ) وزاوية الشيخ أبي حجلة بتلمسان. وزاوية سيدي الحلوي بتلمسان (ق 8هـ). وزاوية الحسن بن أبي القاسم بن باديس: (ت 787هـ) بقسنطينة. وسواها. كما أنشئت في الجزائر زوايا أيام الحكم العثماني وزمن الاحتلال الفرنسي (1830-1962).

المستشرقون وكتاباتهم عن الزوايا في الجزائر:

لقد نال موضوع التصوف والزوايا الصوفية في الجزائر قسطا لا بأس به من الدراسات التي أنجزت باللغة الإنكليزية في أوروبا. سواء ما كتبه المستشرقون الإنكليز أو ما ترجم إلى الإنكليزية من الألمانية

بإيراد بعض الأمثلة. فمن أهم الطرق الصوفية التي وجدت ولا تزال توجد في الجزائر: الطريقة القادرية (وهي منتشرة عبر كل أرجاء الوطن وخاصة الغرب والجنوب) والطريقة الشاذلية (في الغرب الجزائري وجنوبه في الصحراء) والطريقة العيساوية (في عين تيموشنت وضواحيها وأم البواقي) والطريقة الشيعية (لها ارتباط بأولاد سيدي الشيخ وتنتشر في الجنوب الغربي والصحراء الوسطى) والطريقة الزيانية (وهي طريقة منتشرة بالجنوب الغربي على الخصوص) والطريقة الرحمانية (وهي منتشرة في كل بلاد زواوة (القبائل) ومنطقة الجلفة بشكل كبير وتوجد في مناطق طولقة والهامل والجنوب وبالتحديد الصحراء الوسطى والغرب) والطريقة التيجانية (وهي منتشرة بمناطق الغرب وجنوبه والصحراء والشرق ولها إمدادات إلى إفريقيا الوسطى) والطريقة الدرقاوية (الغرب الجزائري ومناطق الونشريس) والطريقة السنوسية (الغرب خصوصا وفي الشرق عموما) والطريقة الهبرية (متواجدة بشكل كبير في تلمسان والغرب وكذلك الصحراء الوسطى) والطريقة العلوية التي توجد بأغلب مناطق الوطن وخاصة مستغانم. وحتى في الخارج.

يعالجان موضوع انتشار الطريقة الشاذلية في الجزائر بوجه عام. بينما كتب مارتن لينج سيرة الشيخ أحمد العلوي بعنوان: A Sufi Saint of the Twentieth Century، Shaikh Ahmad al-'Alawî. His spiritual heritage and legacy (London: George Allen and Unwin، 1971). وأهمية هذا الكتاب أن لينج قضى مدة في زاوية الشيخ في الجزائر. تركز إهتمام زخاري رائت في معالجة مناحي من الطريقة التجانية المحمدية متمثلة في سيرة الشيخ أحمد تجاني. وذلك في تأليف: On the Path of the Prophet: Shaykh Ahmad Tijani and the Tariqa (Muhammadiyya (Atlanta، 2005. بينما انصبت جهود ليزلى كادافيد مع حسين نصر على تقديم أعمال بعض الصوفية الجزائريين. وذلك في كتاب: Two Who Attained: Twentieth-Century Sufi Saints: Shaykh Ahmad al-'Alawi & Fatima al-Yashrutiyya، Selections translated from Shaykh Ahmad al-'Alawi's The Divine Graces and a Treatise on the Invocation. ISBN 1-887752-69-2 (Fons Vitae، 2006).

والفرنسية (برخاردت 1908 - 1984م ورينه جينون وغيرهما). ولا يعزبن عن البال أن كتابات المستشرقين عن أية من المؤسسات الدينية للمسلمين عادة ما تبدأ بتغطية تاريخية لدخول الإسلام في الأقطار التي تقع فيها المؤسسات هي موضوع دراستهم. وهناك عدد من المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من المتصوفة في سلاسل عديدة (الشاذلية والنقشبندية وسواهما) من أمثال أيوان أكيلي (الشيخ عبد الهادي العقيلي. 1869 - 1917م. وفريتجوف شون 1907 - 1998م. وبرخاردت (الشيخ عز الدين 1908 - 1984م. ورينه جينون (الشيخ عبد الواحد يحيى 1886 - 1951). ومارتن لينج (الشيخ أبو بكر سراج الدين. 1909 - 2005م).

تعد مؤلفات نكلسون (Reynold A Nicholson) وخاصة كتابه: Studies in Islamic Mysticism (1920) وترمنجهام (Trimingham، J. Spencer) وتأليفه: The Sufi Orders in Islam (Oxford University Press، 1998) من أهم المصادر الأوروبية لدراسة السلاسل الصوفية في تاريخ الإسلام. والكتابان

ملف العدد

توصف بكونها ضئيلة مقارنة مع الحقائق المسجلة تاريخاً عن اختفاء الكنيسة المسيحية. لقد صمد البربر بشدة في وجه زحف الجيش العربي. ويبدو أن القوة أكثر تأثيراً من الاعتناق الطوعي في إسلامهم. وأي فرصة وجدوها استغلوها للثورة ضد الديانة وضد الفاتحين. يذكر المؤرخون العرب أنهم ثاروا مرارا. حيث ارتدوا عن الإسلام إثنى عشرة مرة. هنا لا يحيل أرنولد إلى أي مؤرخ عربي. بل يشير إلى فورنيل.

في عام 703 م صمد البربر ضد الغزاة. ولكن الكاهنة (رائدة البربر ونبيتهم) قررت أن ترسل أبناءها إلى قائد جيش المسلمين لكئ يسلموا وهي بدورها قادت البربر ضد منافسها في المنطقة. وتم تجنيد اثني عشر ألف بربري في الجيش الإسلامي. وبذلك طمع قواد الجيش العرب في فتح قلوب البربر لدينهم مقابل المغانم. ثم إن الجيش البربري المتألف من سبعة آلاف مقاتل تحت لواء طارق بن زياد (وهو نفسه من البربر) والذي غزا إسبانيا في عام 711م كان متألفاً من الذين دخلوا الإسلام من البربر. وعين عدد من علماء الدين العرب ليعلموهم القرآن وواجبهم في الدين

إن ما كتبه الأعلام الإنكليزية في موضوع التصوف في الجزائر يغطي بالجملة كيف انتشر الإسلام في إفريقيا. كما تشرح دور الزوايا والمدارس القرآنية في المحافظة على شخصية المسلم في الجزائر دينياً وعلمياً وثقافياً. إضافة إلى ما أدّى التصوف من دور بارز في مكافحة الاستعمار. على أن كتاباتهم تحمل في طياتها خصائص المستشرقين منهجا وتحليلا واستنتاجا. فكتاباتهم تتسم بالموضوعية في العرض. بينما يمهّد تحليلهم - بحكم رؤياهم التنظيرية - لاستنتاج منبعه الخلط بين التصوف والغنوص والحقيقة والأسطورة.

أرنولد وكنيدي وترمنجهام وأعمالهم: دراسة وتحليل

في كتابه: Preaching of Islam (ألفه المستشرق الإنكليزي أرنولد -1864-1930م عندما كان أستاذاً في جامعة على كره. الهند. عام 1896م) يبحث أرنولد عن التصوف والزوايا في الجزائر في فصل عنوانه بـ "The Spread of Islam in Africa". في رأي أرنولد المواد التي يمتلكها المستشرقون بخصوص انتشار دعوة الإسلام في جماهير شمال إفريقيا لن

أدى إلى هجرته إلى السودان وبعض جزر نهر السينيغال. حيث أنشأ زاوية. وتوسع نطاق دعوته. وفي سنة سعى أتباعه بإسم "المرابطين". وكثر المنتمون إليه. وعندما مات في عام 1059م كان الإسلام قد انتشر بين قبائل البربر. وخرجوا من الصحراء وأصبحوا سادة إسبانيا. وهناك عدد من القبائل البربرية مثل لمتونة وجلادة عرفت بالنشاط الدعوي. وبفضل الدعاة المرابطين انتشر الإسلام بين الكفار في السودان.

أما الزوايا الصوفية في غرب إفريقيا فمن أهمها وأكثرها انتشارا هي التي كانت تنتهي إلى الطريقة القادرية والطريقة التيجانية. دخلت الطريقة القادرية في إفريقيا على المهاجرين من توات وتكثفت نشاطاتهم في ولاتة وتمبكتو. وأرسل مشايخ القادرية مريديهم إلى مدارس دينية شهيرة مثل مدارس القيروان وفاس وطرابلس وحتى الأزهر. الطريقة التيجانية التي نشأت في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تفرعت في فروع وعملت لنشر الإسلام في أواسط إفريقيا. إن هذه الطريقة لم تمتنع عن استخدام السيف في نشر الدعوة. من أهم مشايخ

الجديد الذي اعتنقوه. إن دخول البربر في الإسلام كان سطحيا. وهذا يقدر من الواقع أن عمر بن عبد العزيز عندما عين إسماعيل بن عبد الله والي لإفريقيا سنة 100 هـ/718م بعث معه عشرة علماء دين ليعلموا القرآن ويعلمهم محرمات الدين الجديد فيعرفوا أن هذا الدين الجديد يحرم عليهم الخمر. هنا يفند أرنولد رأي من يقول (فورنيل مثلا) إن هذه الجهود أثمرت عن إسلام جميع البربر. ولم يبق أحد منهم على الدين القديم. ويستدل على نتائج دراسات قام بها جولد تسيهر عن بقايا المتمسكين بالدين القديم.

يذكر أرنولد دور المرابطين في نشر الإسلام بين البربر. خاصة الشيخ يحيى إبراهيم من بربر صنهاجة بعد عودته من الحج والدور الذي قام به في نشر دعوة الإسلام. فقد حرص على أن يصاحبه علماء لنشر الإسلام في أواسط إفريقيا الصعبة جغرافيا. استطاع الشيخ أن يكسب ود الشيخ عبد الله ياسين الذي عمل في هذا المجال. بيد أن الشدة في اتباع الشريعة التي نادى بها الشيخ عبد الله ياسين لم تفلح في البربر. الأمر الذي

حوزتهم. وهم بالتالي واصلوا دعاية تظهر وكأنها تنجح في مكان أخفقت فيه سيطرة المسلمين طيلة قرون.

عرفت الزوايا الصوفية الجزائرية بدورها الفعال في مكافحة الاستعمار الفرنسي. وهذا الموضوع تناوله المستشرقون الإنكليز في أعمالهم. فالمستشرق أرنولد أحال إلى ثورة الحاج عمر من زاوية امحمد بن عبد الرحمان في ذراع الميزان. إن هذه الزاوية أدت دورا كبيرا في المقاومة. إذ تزعم قيّمها الحاج عمر عام 1851 حركة ثورية ضد القوات الفرنسية. وكان قد عُيّن في عام 1854 مقدما للرحمانيين. وهو زوج الشيخة فاطمة إحدى بنات الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس الزاوية. وكان شديد الحيوية والنشاط. ومال إلى تأييد الثوار أثناء ثورة الشريف بوبغلة واعتصم بالمناطق الجبلية الحصينة قرب الزاوية حتى أرغمته القوات الفرنسية على الاستسلام يوم 14 نوفمبر 1851 في بني كوفي بآيت إسماعيل. وقد احتفظ برئاسة الزاوية والإخوان حتى عام 1856. حيث تزعم من جديد الثورة بنفسه. ربط صلاته

التيجانية : الشيخ الحاج عمر (المولود في عام 1797م في بودور. السينيغال) الذي أسس إمارة في بعض مناطق النيجر والسينيغال. ومات عام 1865 مجاهدا. واستطاع ابنه المسمى أحمدو شيخو أن يحكم في إمارة أبيه حتى مجيء الفرنسيين وتمزق الإمارة التيجانية. ويذكر أرنولد جهود الإمام أحمدو صمدو الذي جند أصحابه ونشر الإسلام وبلغ أوج نشاطه الدعوي والسياسي في عام 1881م وفي 1898 أسره الفرنسيين. ومات في عام 1900. إن هولاء المشائخ أنشأوا المدارس في المناطق التي فتحوها ليعلموا المعتنقين الجدد تعاليم الإسلام. ويذكر أرنولد جهود الزوايا الإسلامية في تعليم وتثقيف الناس. ويشيد بالذكر تلك التي أسهمت في قمع الطقوس الغريبة مثل اصطياد الإنسان وأكل لحمه وقلة الملابس وتجارة المسكرات.

يعلق إرنولد على نشر الإسلام في إفريقيا نهائيا بقوله: لا يصدق القول أن الإسلام يتطور في إفريقيا بالقوة فحسب. الواقع بالعكس. لأن تقسيم إفريقيا بين القوات الأوروبية التي اغتصبت السيف من أيدي أمراء المسلمين هي الآن في

بالشيخ واعراب في اث ايراثن ولالا فاطمة والشيخ محمد بن عبد الرحمان شيخ بني منقور وقادوا جميعا في جبال جرجرة جماهير الرحمانيين ضد الجيش الفرنسي الذي كان يقوم بعمليات استكشافية في جبال جرجرة تمهيدا لغزوها. وزحف الحاج عمر بنفسه يوم الثاني من سبتمبر 1856 على رأس إخوانه إلى ذراع الميزان. وتواصلت المعارك حول هذه المدينة إلى غاية يوم 22 من نفس الشهر وقام الجنرال يوسف بالزحف على زاوية آيت إسماعيل وعسكر حولها. وقد اختارته فرنسا لمثل هذه المهمة لشدة حقه على الإخوان خاصة وعلى الجزائريين بصفة عامة. وهناك ثورات أخرى عرفت دور الزوايا الصوفية الريادية في الجزائر ضد الإحتلال. منها ثورة لالا فاطمة نسومر. وثورة الشيخ بن جارا الله. وثورة الهاشمي بن علي دردور (1230/ 1317 هـ = 1815/ 1899 م). إن هذه الثورات وسواها عالجها المستشرقون الإنكليز في كتاباتهم عن الجزائر بوجه عام.

لقد عرفت بعض الطرق الصوفية في الجزائر وفي غيرها من البلاد العربية والإسلامية بطقوس وسلوكيات غريبة.

مثل أكل الأفاعي والثعابين والعقارب. المستشرق ج. س. كنيدى (J. Clark) (1817-1867) (Kennedy) في كتابه: Algeria and Tunis in 1845 (London: Henry Colburn Publisher, 1846) ذكر مثل هذه الطقوس التي شاهدها في الجزائر. فهو يقول في الفصل الثامن من الكتاب. يذكر كنيدى ما شاهده الكابتن مرتينوت (Captain Martenot) في بعض مجالس الذكر والرقص الروحي للطريقة العيساوية في العاصمة في حي الإمبراطور (Rue de l'Empereur). اجتمع في بيت عربي حوالى ستين شخصا. بينما طابق البيت الأول كان مكتظا بالنساء المبرقعات بالبيض ولا يظهر منهن سوى أعينهن السود وحواجهن المصبوغات بالحناء. ثم بدأ مجلس الذكر. بعد أداء طقوس خاصة. الشخص الذى صاحب مرتينوت كان يدعى بـ "بوشمعة" الذى حكى له قصة بداية هذه الطقوس. وخلاصتها أن شيخا في وهران اسمه المرباط محمد بن عيسى كان من أولياء الله الصالحين. اجتمع حوله عدد من خلق الله. وكانوا يجوبون الأقطار في التل وفي الصحراء ليرشدوا الناس إلى الحق. بينما هم كذلك ذات مرة ضلوا الطريق في الصحراء ونفذ ما كان

لماذا ألف ترمنجهام هذا الكتاب؟

الإجابة - حسب ما كتبه ترمنجهام - هي أن موضوع التصوف في مناحيه التنظيمية (الطرق الصوفية) في الإسلام موضوع مبخوس حقه في الدراسات الاستشراقية في اللغات الأوروبية. على أن هناك مستثنيات قليلة من أمثال لويس رن (Louis Rinn، Marabouts) وشتالييه (et Khouan، Algiers، 1884 A. le Chateliers، Les Confrériers) musulmanes du Hehjaz، Paris، (1887)

يعالج ترمنجهام في كتابه عددا من المرتكزات التاريخية بخصوص الزوايا الصوفية في الجزائر في عدة فصول عكفت على تشكيل المنظومات الروحية أسسا وفروعا في تاريخ الإسلام. إضافة إلى تنظيم الزوايا الصوفية في العصر الحديث. يكتب المؤلف أن من بين الطوائف الصوفية الاثنى عشرة في الإسلام هناك طائفتان مردودتان وهما: الحلولية القائلة بالحلول والامتزاج (ذات علاقة مع السالية المجسمة) والحلاجية بما فهم الإباحية والفارسية. البقية المقبولة هي: المحاسبية والقصارية

معهم من الزاد. فساء حالهم. وضعفوا جوعا وكادوا يهلكون. عند ذلك مد الشيخ يده إلى السماء ودعا الله أن يحول كل ما تمسه أيديهم إلى طعام. بينما الشيخ في الدعاء. جمع أصحابه ما وجدوه من الحجارات والأفاعى والعقارب وغيرها التي وجدوها في الصحراء وأكلوها. فشبعوا ولم يتضرروا. من هنا تحتفل العيساوية بمثل هذا ككرامة من كرامات شيخهم. وذكر كيف يضعون جذوة النار على ألسنتهم من غير أن تمسهم النار بسوء. وكيف يرقصون مع الثعابين ملتفة على أعناقهم وألسنتهم. وغير ذلك من الأعمال المقززة المدهشة.

ترمنجهام (J. Spencer Trimingham)

في كتابه : The Sufi Orders in Islam (Oxford University Press، 1971))
عالج العديد من موضوعات التصوف والزوايا الصوفية في كتابه. إن هذا الكتاب من أهم الكتب التي ألفها المستشرقون عن الطرق الصوفية الإسلامية. يتميز هذا الكتاب بمنهج علمي رصين في معالجة المواد التاريخية وتحليلها من غير أن ينطوى على إشارات إلى مرجعيات خارجية مظنونة أو مخمنة.

ففيها لم يتعد نفوذها خارج المنطقة الإفريقية. ومشاخها في مرحلة التكوين لم يعرفوا بإسهام كبير في تنظير التصوف. من أسباب ذلك - في رأى ترمنجهام - أن المذهب المالكي والسلطة المتزمتة التي أدت إلى الإفتاء بإدانة ومنع كتب الغزالي. على أن التصوف استقر على قدمه زمن المرابطين (1056 - 1157م) وازدهر أيام الموحدين (1130 - 1259م).

الشيخ أبو مدين المغربي تلقى التربية الروحية من الشيخ محمد الدقاق والشيخ أبي يعزى (ت 1176م) قام بدور رئيس في تأسيس طريقته في المغرب والجزائر. الشيخ أبو يعزى كان من أصل بربري ذهب للحج وسافر إلى العراق حيث التقى مع الشيخ أحمد الرفاعي. وتوطدت بينهما أواصر الإخاء والمحبة. استقر الشيخ أبو مدين في بجاية. ولكن فقهاء الموحدين احتقدوه. فأمر أن يحضر بلاط الأمير في مراكش. وفي طريقه إليه وافاه الأجل بقرية عباد قرب تلمسان.

يشير ترمنجهام إلى الفرق الذي يوجد بين النظام الصوفي الشاذلي الأول (المتطور في مصر على أيدي أبي الحجاج يوسف في الأقصر (ت 1244م) الذي

والطيفورية والجنيدية والنورية والسهلية والحكيمية والخراجية والخفيفية والسيارية. إن هذه الطوائف أسست هيكلها التنظيمي في طرق صوفية تسمت بأسماء مؤسسيها. من أمثال السهروردية والقادرية والكبروية والجشتية والشاذلية والبديوية والمولوية والنقشبندية. وغيرها. الشاذلية تأسست على أيدي أبي مدين شعيب (ت 1197م) وتسمت بإسم الشيخ أبي الحسن الشاذلي (ت 1258م) دخلت تركزت بلاد مصر والمغرب.

هناك نقطة هامة بخصوص أمهات سلاسل الطرق الصوفية يشير إليها ترمنجهام. وهي أن مدارس الطرق الصوفية في الإسلام أصلاً اثنتان: الجنيدية (نسبة إلى الشيخ الجنيد البغدادي) والبسطامية (نسبة إلى الشيخ أبي يزيد البسطامي). هما مدرستا العراق وما وراء النهر. ثم ظهرت مدرسة المغرب بمؤسسها الشيخ أبي مدين المغربي (ت 1197م).

يذهب ترمنجهام إلى أن مصر والمغرب تشكلان منطقة خاصة في التصوف الإسلامي. لأن معظم الطرق التي نشأت

الطريقة الشاذلية التي دعا إليها ابن عطاء الله الإسكندري، وهي أن طريقته كانت أشبه بالطريقة الملامتية من غير أن تسمى بهذا الاسم.

المريونيون (1195 - 1470) والحفصيون (1228-1534) الأوائل اهتموا بالطرق الصوفية وشجعوا أصحابها. مثل السلاجقة في الشرق. حيث أنشأوا المدارس والزوايا. المريني أبو الحسن بعد فتحه لتلمسان في سنة 1337 م بنى ضريح الشيخ أبي مدين وفيه مدرسة وحمامات. على أن الطريقة المدنية المغربية تميزت عن الطريقة الشاذلية المصرية بمزايا جعلتها لا تزدهر حتى القرن الخامس عشر الميلادي. لأجل ذلك نجد الواسطي في العراق عندما كتب عن الصوفية في عام 1320م يذكر الطريقة باسم التلمسانية. كذلك نجد ابن قنفذ في كتابه "أنس الفقير" الذي ألف في عام 1385م يذكر ضمن سيرة الشيخ أبي مدين ست طرق في غرب المغرب. الماغيرون (نسبة إلى محمد صالح بن ينصران سعيد الماغيري ت 631/1234) أسهموا في الدفاع عن سمعة الشيخ أبي مدين بتألف كتب مثل: تلقين الورد. والمنهاج الواضح. في وجه الهجوم من فقهاء المالكية.

أنشأ زاوية في خراب معبد آمون وكذلك عبد الرزاق الجزولي. والشيخ عبد السلام مشيش. وأبو الحسن الشاذلي. وتاج الدين عطاء الله عباس. وسواهم. كان الشيخ الشاذلي رجلا صالحا يربى خلق الله تربية دينية سهلة في ضوء علمه وتجاربه الروحية. يتضح ذلك في بعض رسائله. طريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي لم تكن مؤسسة على قواعد تنظيمية معروفة للإرادة والتربية. أبو العباس أحمد المرسى (-616/1219) ارتبط به في الإسكندرية وأسس لنفسه رباطا ومسجدا. هوي يعتبر من مريدي الشيخ الشاذلي. إضافة إلى الشيخ تاج الدين عطاء الله الإسكندري (ت القاهرة 709/1309) الذي ألف كتابا عن الشيخين الشاذلي وأبي العباس وجمع أورادهما.

تفرعت من الطريقة الشاذلية في مصر طريقة هي الطريقة الوفاية نسبة إلى الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد وفاء (701/1309-760/1359) وهي منتشرة في مصر وسوريا. الطريقة الشاذلية في المغرب وجدت أتباعا لها بفضل مؤلفات ابن عطاء الله الإسكندري. على أن المنطقة لم تشجع الطريقة على أيدي مؤسسيها. هنا يشير ترمنجهام إلى طبيعة

العربي مثلما كان في قبل القرن التاسع عشر. لم يكن المغرب العربي بمعزل عن الأزمات. ولكن المعدل السياسي لم يفقد التوازن في الأبيض المتوسط. كان البرتغاليون قد أوقفوا حواجز في وجه طموحات السلطان سليم التركي في المحيط الهندي. التوسع الأوربي الأول في العالم العربي تمثل في حملة نابليون بونابرت على مصر في عام 1798م. الأمر الذي تحول إلى نقطة سهلة للشروع في الكلام عن خطر التوسع الأوربي الحقيقي في العالم الإسلامي. في هذا السياق يحتل مشروعان للإصلاح والتجديد الدينيين في غاية الأهمية. هما: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونعرات الإصلاح الروحي الصوفي. على أن المشروعين لم يعوضا البدائل للخطر الأوربي. إن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رفضت أي وساطة بين الأرض والسماء. وأي تفسير غير ظاهري للإسلام. وطمست كل المعالم التاريخية التي ظهرت لها كوحدة لهذا النوع من الوساطة. منها هدم أضرحة الأولياء والصالحين. بما في ذلك هدم ضريح الإمام حسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء عام 1802م. إن هذا

يذكر ترمنجهام عددا من أهم الطرق الصوفية البربرية من أمثال الشعبية (نسبة إلى الشيخ أبي شعيب أيوب بن سعد. شيخ ازامور (ت 1165 م) وأحد شيوخ الشيخ أبي يعزى. والحاحية (نسبة إلى الشيخ زكريا يحيى الحاحي) والغمطية أو الأغماطية أو الهزميرية (نسبة إلى الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الهزميري (ت 1307م) والصنهاجية من بني أمغار (حول رباط تيط ان فطر حوالى 1140 م) والحجاجية (التي اشترطت أن يكون أعضاؤها من حجاج بيت الله فقط). يذكر ترمنجهام أن الطريقة الخلوتية (من أصل تركي: الشيخ إبراهيم الكلشني. آمد. ديار بكر) والمزدهرة في مصر وجد لها فرع في المغرب والجزائر هو الطريقة الرحمانية التي أسسها الشيخ أبو عبد الله الجرجوري (ت 1793م).

حركات الإصلاح والتجديد الروحي في القرن التاسع عشر

يعالج كتاب ترمنجهام موضوع حركات الإصلاح والتجديد الروحي في القرن التاسع عشر والدور الذي أدته الطرق الصوفية. يقول ترمنجهام: إن الغرب لم يكن سببا للتحويلات العكسية في العالم

مستغانم. والعلوية (أسسها الشيخ أحمد العلوي. ت 1934 ودفن في زاوية تغزيت في مستغانم. والمدنية (أسسها الشيخ محمد حسن ابن حمزة المدني المتوفي في مصراته عام 1846م). والرحمانية كفرع حجازي (أسسها الشيخ محمد بن محمد بن مسعود بن عبد الرحمن الفاسي (ت. 1878م) والذي ذهب إلى مكة عام 1850 وأنشأ زاوية. وهي غير الطريقة الرحمانية الخلوتية الحفناوية التي أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجرجوري (ت 1208/1793).

و هناك موضوعات أخرى متعلقة بالطرق الصوفية معتقدا وطقسا وتنظيما يحيط بها ترمنجهام في كتابه. مثل التصوف وفلسفة اللاهوت. تنظيم الطرق. الطقوس والعادات والتقاليد الصوفية بما فيها الأوراد والرياضات. ودور الطرق الصوفية في حياة المجتمع المسلم. والطرق الصوفية المعاصرة. والصوفية والملاطية والقلندرية. وجداول السلاسل الصوفية (السهروردية والقادرية والشاذلية والمدينية والرفاعية وسواها).

الحملة لم تكن ذات أثر كبير على الصعيد السياسي. ولكنها أدت دورا بارزا في تقوية الشعور بالإصلاح الروحي في الإسلام.

يشيد ترمنجهام بدور المغاربة في الإصلاح الروحي. ويقول أن الفضل في ذلك يعود إلى ثلاثة أشخاص ولد كل منهم في المغرب واتخذوا إما منهج التقليد أو منهج التجديد. الإصلاح على الخطوط التقليدية تبناه الشيخ الدرقاوي الذي بعث الحيوية في الطريقة الشاذلية. أما الإصلاح على خطوط التجديد فقاد مسيرته الشيخ أحمد التيجاني والشيخ أحمد بن إدريس. الأحمدان أكدا على أن الغاية من الذكر هي التوحد مع روح النبي. وليس مع روح الله. إن هذا المبدأ قام بتغيير مجرى الأمور الصوفية. وخفف من ثقل المؤسسات الطرقية التقليدية (سلاسل الخرقة والإجازة مثلا) وبعث التصوف الشرعي والخلقي من جديد. فلم يكن المجال واسعا لممارسات الدروشة القديمة. على أن الدرقاوية الجديدة اهتمت بممارسات الزهد التقليدية. الدرقاوية تفرعت في الجزائر على طرق مثل المحجية أو القدورية (أسسها سيدي بو عزة المحجي في

خاتمة

له علاقة بأرض الواقع - بما فيه الشعائر الصوفية وتقاليدها العجينية- في الجزائر وتونس في عام 1845م.

ظهر كتاب ترمنجهام في عام 1971م. إن منهج ترمنجهام منهج علمي تاريخي. لأن غايته هي: التطور التاريخي للطرق والتماس المراحل المتتالية التي سارت بها روح التصوف وعملها. على أن المؤلف لا يلغي الناحية الفكرية. ولكنه يأخذ الحذر ضد أي تفريط فيما يخص التطور الثقافي الفكري الروحي الإسلامي الذي لم يقتصر تأثيره على عامة المسلمين. على خلاف ما يجده بخصوص أي حركة روحية في المسيحية.

ظهر كتاب أرنولد في عام 1913م. إن منهج أرنولد أيضا علمي تاريخي. ولكنه أراد أن لا يجعل من الكتاب مستندا لتاريخ الاضطهاد الديني في الإسلام. إنه مستند الجهود الدعوية فقط. إنه حاول قدر المستطاع أن يكون موضوعيا وحياديا "مثل المؤرخ المسيحي فرانتزيس الذي أرخ لفتوحات العثمانيين وسقوط قسطنطينية".

يتفاهم حجم كتابات المستشرقين الإنكليز عن الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر. وذلك ضمن مشاريع بحثية علمية عامة وفي كتب الرحلات الاستكشافية. المستشرقان أرنولد وترمنجهام عالجا الموضوع في أعمالهما بتركيز على انتشار الإسلام والطرق الصوفية في إفريقيا. وتناولوا نخبة من الموضوعات الصوفية معتقدا وطقوسا وتاريخا. كانت الطرق القادرية والشاذلية والمدينية والتيجانية والرحمانية وسواها من الطرق الصوفية وزواياها في الجزائر من موضوعات الكتب الرئيسية والفرعية. كما اهتم المستشرقان بتاريخ التطور الصوفي في الجزائر مع ذكر الشخصيات الهامة مثل الشيخ أبي مدين المغربي والشيخ أبي الحسن الشاذلي والأمير عبد القادر الجزائري. إضافة تسليط الضوء على دور الزوايا الصوفية في الصمود في وجه الاستعمار (ثورة الحاج عمر وجهاد الأمير عبد القادر الجزائري. مثلا). بينما ركز المستكشف البريطاني كنيدي على كل ما

أما كتاب كنيدي فطبع لأول مرة في عام 1846م. لم يكن كنيدي باحثاً في العلم. وإنما كان مستكشفاً عسكرياً. فرؤيته غير رؤية أرنولد وترمنجهام. وحتى سرده لما شاهده في الجزائر وتونس من الوقائع والأحداث والأوضاع يختلف منهجاً ومما نجده في أعمال أرنولد وترمنجهام. على أن آخر ما سطره في كتابه عن الأمير عبد القادر الجزائري يُكِنُّ عن احترامه له وتقديره الشديد، إذ يراه أحق بتولى ما يريده خدمة لشعبه ووفاء لوطنه. على أن الضراوة التي توجد في الجانبين هي أشد في حق الشعب الجزائري. ويتمنى انقشاع الظلام وبزوغ النور الذي يبعد الجهل والتخلف من المنطقة.

(للموضوع مراجع)

منهج أرنولد يتفاعل مع منهج ماكس ميولر الألماني الذي يبدأ أرنولد كتابه بالإحالة إليه في محاضراته التي ألقاها في ديسمبر عام 1873 في ديروستمنستر. وقسم فيها ديانات العالم إلى دعوية (البوذية. المسيحية. الإسلام) وغير دعوية (اليهودية. البرهمية. الزردشتية). ويستدل أرنولد بعدد من الآيات القرآنية ذات العلاقة مع الدعوة إلى الله. منها أية: (لا إكراه في الدين) (البقرة: 257)